# الفصل الرابع

## «الانطلاق بالدعوة الإسلامية نحو العالمية»

كان من أهم ما ترتب على صلح الحديبية فى العام السادس من الهجرة أن أصبح رسول الله ﷺ شخصية اعتبارية فى الحجاز، لذلك رأى الرسول ﷺ أنه قد حان الوقت ليخرج بالدعوة الإسلامية خارج الحجاز تحقيقا لمبدأ عالمية الدعوة الإسلامية.

**كتب الرسول إلى أمراء العرب:**

كان من بين أمراء العرب الذين أرسل إليهم الرسول كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام، المنذر بن ساوى أمير البحرين، فقد بعث إلى الرسول كتابا مع العلاء بن الحضرمى فكتب إليه المنذر بإسلامه وقال: فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى يهود ومجوس، فأحدث إلى فى ذلك أمرك، فكتب إليه الرسول:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسله ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية[1].

**وكتب الرسول إلى أميرى عمان:**

جيفر وعباد ابنى الجلندى – وهما من الأزد – كتابا بعثه مع عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان [2]، وجاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر

(١) النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ص١٦٩–١٩٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٢.

وعباد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوكما إلى ما دعا به الإسلام أسلما تسلما، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملككما"[1] فأجابا إلى الإسلام وصدقا بالنبى[2].

وبعث الرسول سليط بن عمر العامرى إلى هوذة بن على الحفنى وإلى ثمامة بن أثال أميرى اليمامة يدعوهما إلى الإسلام، فلم يجيبا دعوته[3].

وكتب الرسول إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق كتابا بعثه مع شجاع ابن وهب [4]، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك" فلما أتاه الكتاب، قال: من ينزع منى ملكى، أنا سائر إليه (أى محاربه) ولم يسلم، فقال الرسول: باد وباد ملكه.

كذلك بعث الرسول الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل مؤتة[5] اعترضه شرحبيل بن عمرو الغسانى وقتله[6].

وكذلك حينما أرسل الرسول – ﷺ – وفدا إلى ذات الطلح – على مقربة من الشام – ليدعوهم إلى الإسلام وكان عدتهم خمسة عشر رجلا، قتلوهم جميعا إلا رئيسهم وقد أبقوا عليه عمدا ليخبر رسول الله بما رآه عند عودته إليه.

وكتب الرسول إلى بعض أمراء اليمن، منهم الحارث بن عبدكلال الحميرى وشريح ابن عبدكلال ونعيم بن عبدكلال، ونعمان قيل ذى يزن ومعافر وهمدان، وزرعة ذى رعين يدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم بأن يؤدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيرا، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره إسلامهم ودخولهم طاعته[7].

---

(١) النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٠٧١.

(٢) ابن سعد: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧.

(٣) ابن هشام: ج ٤ ص ٢٨٩ ، ابن سعد ج ٢ ص ٢٩.

(٤) الطبرى: ج ٢ ص ٢٩٤.

(٥) مؤتة: قرية منقرى البلقاء فى حدود الشام، ياقوت: معجم البلدان ج ٨ ص ١٩٠.

(٦) النبهانى، الأنوار المحمدية ص ١٠٣، المقريزى، إمتاع الأسماع ج١ ص ٣٤٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ص ٢٩.

**كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة:**

كذلك وجه الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب كتبا مؤداها الترغيب فى الدخول فى الدين الإسلامى، ولم يطلب منهم الخضوع لسلطانه، فأوفد عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة، وبعث معه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فكتب إليه النجاشى رسالة يخبره فيها بقبول دعوته وتصديقه إياها[1].

أما هرقل قيصر الروم، فبعث إليه الرسول كتابا مع دحية بن خليفة الكلبى، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فعليك إثم الأريسيين[2]، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[3] فقبل هرقل كتاب الرسول وكتب إليه "إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءنى كتابك مع رسولك، وإنى أشهد أنك رسول الله" نجدك عندنا فى الإنجيل، بشرنا بك عيسى ابن مريم، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك، فأبوا، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك[4].

وبعث الرسول إلى كسرى فارس كتابا مع عبدالله بن حذافة السهمى يدعوه فيه إلى اعتناق الاسلام، قال فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عز وجل فإنى رسول الله إلى الناس كلهم لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس"، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وصلم فقال: مزق الله ملكه[5].

كذلك وجه الرسول إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل امبراطور الروم كتابا مع

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٣.

(٢) أى فإن عليك مع إثم الاتباع والأريس – الفلاح.

(٣) النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ص١٦٦.

(٤) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ج٢، ص٦٢.

(٥) الطبرى: ج٢، ص٢٩٦، المقريزى: إمتاع الأسماع ج١، ص٣٠٩، النبهانى، ص١٦٦.

حاطب بن أبى بلتعة، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت" فعليك إثم القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".

فأحسن المقوقس استقبال رسول النبى وقبل كتابه وأجابه بقوله: "كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام – وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله – فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك[1]، وبعث معه بهدية إلى النبى ﷺ [2].

وهكذا لم يترتب على كتب الرسول ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدول أى مشاكل تستحق من الرسول وقفه حاسمة إلا ما حدث فى منطقة الشام، فقد أشفق النبى ﷺ على عاقبة السكوت على كلتا الفعلتين التى قتل فيهما رسله إلى الشام ورأى أن يقتص لأصحابه، وحتى لا تضعف هيبة الإسلام[3].

وقد وقع اختيار الرسول على مولاه زيد بن حارثة الكلبى ليكون أمير الجيش وأوصى فى حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبى طالب، وإذا قتل جعفر حل محله عبدالله بن رواحة الأنصاري، وإن أصيب عبدالله بسوء، فليتفق المسلمون على إسناد إمارة الجيش لرجل منهم[4]، فخرج هؤلاء الأمراء إلى مؤتة فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، على رأس جيش بلغت عدته ثلاثة آلاف، وشيعهم رسول الله إلى ثنية الوداع[5]، وأوصى أمراء الجيش بقوله[6] أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغروا ولاتغلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم واكفف عنهم،

(١) ابن الحكم: فتوح مصر ج٣، ص٤٧.

(٢) المقريزى: إمتاع الاسماع ج١، ص١٠٨.

(٣) الدكتورة ليلى عبدالجواد إسماعيل: الدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل، ص٣٤٦.

(٤) اليعقوبى ج٢، ص٤٩.

(٥) ثنية مشرفة على المدنية: يطؤها من يريد مكة، وكان الناس فى الجاهلية يودعون المسافرين من هذا المكان، ولذا عرف بثنية الوداع، انظر ياقوت معجم البلدان.

(٦) المقريزى: إمتاع الأسماع، ص٣٤٤-٣٤٦.

ادعهم إلى الدخول فى الإسلام، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم أخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، ويجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم فى الفيء ولا فى الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم..

وإن أنت حاصرت أهل صحن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا[1] ذمتكم، وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم، وستجدون آخرين فى رؤوسهم مفاحص[2]، فاقلعوها بالسيوف، لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا[3] ولا كبيرا فانيا، ولا تغرقن نخلا، ولا تقلعن شجرا، ولا تهدموا بيتا.

ولما فرغ الرسول من نصيحته لأمراء الجيش، قال له عبدالله بن رواحة: يا رسول الله مرنى بشيء أحفظه عنك، قال: إنك قادم غدا بلدا، السجود فيها قليل، فأكثر السجود، قال: زدنى يا رسول الله، قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب.

سار جيش المسلمين إلى تخوم البلقاء، وكانت موطن نفوذ الغساسنة، ولما وصلوا إلى بلدة معان، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له مآب فى مائة ألف من الروم ومعه قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف، يتولى قيادتهم رجل من قبيلة بلى يقال له مالك بن رفلة[4]، فأخذوا يفكرون فى الأمر وأرادوا أن يكتبوا إلى الرسول بكثرة عدد العدو ليبعث إليهم مددا أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة، فشجعهم عبدالله بن رواحة على المضى فى القتال وقال: والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكرة سلاح ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، وانطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس

(١) أى تنقضوا ذمتكم ولا توفروا بها.

(٢) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن فى رؤوسهم، فجعل له فيها كمفاحص الطير، فألزمهم شدة البغى، انظر كتاب إمتاع الأسماع، حاشية رقم ٢، ص٣٤٦.

(٣) الضرع: صغير السن.

(٤) المقريزي، امتاع الاسماع ج١، ص٣٤٧.

واحد فإنما هى إحدى الحسنين، إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعد نبيبنا وليس لوعده خلف، وأما الشهادة فلنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان[1]، فتغلبت على المسلمين الحماسة الدينية وعزموا على المضى فى سيرهم، فمضوا إلى بلدة مؤتة حيث وافاهم المشركون معهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والديباج والحرير والذهب[2]، ثم دار القتال بين الفريقين، فأخذ زيد بن حارثة اللواء وظل يقاتل حتى قتل، فخلفه جعفر بن أبى طالب فى الإمارة، غير أنه لم يلبث أن استشهد فى ميدان القتال وخلفه عبدالله بن رواحة فقتل[3]، ثم ولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد[4]، فبذل جهده فى إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة فقابلهم أهلها بشىء من السخط، غير أن الرسول لم ينظر إلى حادث انهزامهم هذه النظرة، بل أظهر أمله فى عودتهم لمهاجمة العدو وإحراز النصر عليه.

وقد رأى الرسول ﷺ أن يقضى على الآثار التى خلفتها غزوة مؤتة ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أى تهديد من قبل الروم، فلما تم فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائدا إلى المدينة، بلغه أن الروم جمعت جموعا كثيرة بالشام وضموا إليهم لخم وجذام وغسان وعاملة[5] فبعث إلى القبائل ورؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم فى الجهاد[6] كما حض الرسول المسلمين على بذل المال فى سبيل الله[7] فسارعوا إلى تلبية طلبه، فجاء أبوبكر الصديق بكل ماله – وهو أربعة آلاف درهم – وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، كما حمل إليه كل من العباس بن عبدالمطلب، وطلحة بن عبيد الله وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا وفيرا، وكان عثمان بن عفان من أكثرهم نفقة، إذ جهز ثلث الجيش[8]، كذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم.

وكانت حرارة الصيف وقتذاك شديدة، والثمار قد طابت، ويؤثر الناس البقاء بجوار ثمارهم، فلما دعا الرسول المسلمين إلى التهيؤ للغزو وجد تثاقلا من بعضهم، فاعتذر جماعة

(١) المصدر السابق ج١، ص٣٤٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣، ص١٧٥.

(٣) ابن هشام، ج٢، ص٤٣٣–٤٣٥.

(٤) ابن سعد، ج٣، ص١٧٥ : الطبرى ج٢، ص٢٢.

(٥) ابن سعد، ج٣، ص١٧٥ : الطبرى ج٢، ص٢٢.

(٦) اليعقوبي، ج٣، ص٥١.

(٧) ابن هشام، ج٤، ص١٧٢.

(٨) انظر النبهانى، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٢٧.

بأعذار واهية منها: مشاق السفر ومتاعبه وشدة الحر، كما جاء فريق من المنافقين يستأذنونه فى التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها، وتشير إلى ذلك هذه الآيات من سورة التوبة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة التوبة: الآية: ٣٨]

﴿ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة التوبة: الآيتان: ٤٢، ٤٣]

﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة التوبة: الآية: ٨١].

﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الآية: ٤٥)

﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة التوبة: الآية: ٩٠]

ولما تغلب الرسول على الصعاب التى لاقاها فى سبيل إعداد الجيش، اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية، فخرج ومعه ثلاثون ألفا فى أول رجب سنة تسع، وكان عبدالله بن أبى بن سلول إذ ذاك قد عسكر مع أنصاره خارج المدينة بثنية الوداع وأخذ يثبط عزائمهم بادعائه أن المسلمين لا محالة منهزمون إذا ما وقفوا أمام الروم، ثم ما لبث أن تخلف عن النبى هو وأتباعه وعادوا إلى المدينة[1].

ولم يبال الرسول بتخلف هؤلاء المنافقين ومضى فى سيره حتى وصل تبوك[2]، فحط بها رحله وصالح أهلها على الجزية[3]، ثم شاور أصحابه فى التقدم شمالا والسير إلى حدود الشام، فقال له عمر بن الخطاب، إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال رسول الله

(١) المقريزي، إمتاع الأسماع ج١، ص٤٥٥.

(٢) تقع على بعد اثنى عشر فرسخا من المدينة.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٧١.

ﷺ لو أمرت به ما استشرتكم فيه، فقال له أصحابه: يا رسول الله، إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد افزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله فى ذلك أمرا[١]، فاكتفى الرسول بإيفاد بعض سراياه إلى الجهات المجاورة لتبوك.

وكان الرسول قد وجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على الحدود الشمالية ويدعى يحنة بن رؤبة – صاحب أيلة – يطلب إليه فيها إما أن يعلن إسلامه أو يؤدى إليه الجزية[٢]، فأقبل عليه هذا الأمير – بعد وصوله إلى تبوك – ومعه أهل جرباء[٣]، وأذرح وبعض أهل الشام واليمن، فصالحهم وفرض عليهم جزية معينة، وكان بأيلة ثلاثمائة رجل، فقرر عليهم ثلاثمائة دينار، وكتب ليحنة بن رؤبة هذا الكتاب[٤]، بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر.

وكتب لأهل جرباء[٥]: كتاب من محمد النبى رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم.

وكتب لأهل أذرح[٦]: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب واقية طيبة والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، من لجأ إليهم من المسلمين من المخالفة والتعزيز[٧]، إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه.وكتب لأهل مقنا[٨] وكانوا يهودا[٩] أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزوهم وربع ثمارهم.

(١) المقريزى، إمتاع الأسماع ج١، ص٤٦٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٢، ص٤٢.

(٣) جرباء، موضع من أعمال عمان بالبلقاء، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٧٢

(٤) أذرح، بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأراضى الحجاز (ياقوت).

(٥) المقريزي، المصدر السابق ج١، ص٤٦٨.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٢، ص٦٥، المقريزي، الأمتاع اسماع ص٤٦٩.

(٧) التعزيز، النصرة بالسيف – حاشية رقم ٥، امتاع الاسماع، ص٤٦٩

(٨) مقنا، تقع على مقربة من ايلة، ابن سعد، ج٢، ص٥٤١.

(٩) ابن سعد، ج٢، ص٤١، ٥٦.

كذلك رأى الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل[1] على رأس حملة، خشية خروج ملكها أكيدر بن عبدالملك ومعاونته جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته وتحقيقا لسياسته التى ترمى إلى تأمين شمال الحجاز، وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول خالد بن الوليد بأن يأتى به إليه، ونهاه عن قتله فسار إليه خالد وقبض عليه[2]، وأظهر استعداده ليجيره من القتل حتى يأتى به الرسول على أن يفتح له دومة الجندل، فقبل أكيدر وفتحت أبواب دومة الجندى للمسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد وأكيدر على أن ينزل هذا الأخير للمسلمين عن ألفى بعير، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ثم قدم خالد بأكيدر على الرسول بالمدينة[3]، فصالحه الرسول على أداء الجزية وأخلى سبيله[4]، وكتب له ولأهل دومة كتابا، وفيما يلى نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر، حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد[5]، والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها، أن له الضاحية[6]، من الضحل[7] والبور، والمعامى[8]، وأغفال[9] الأرض، والحلقة، والسلاح، والحافر والحصن، ولكم الضامنة[10] من النخل،والمعين[11] من المعمور بعد الخمس، لا تعدل فاردتكم[12] ولا يحظر عليكم الثبات[13] ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات[14] تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء، وشهد الله ومن حضر من المسلمين".

(١) دومة الجندل، واحة خصبة يقيم بها بطون كندة، تقع شمال المدينة على بعد خمسة عشر ليلة.

(٢) الطبرى، ج٢، ص٣٧٢ – ٣٧٣.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣، ص١٩–٢٢٠، والمقريزى، إمتاع الأسماع ج١، ص٤٦٥.

(٤) ابن سعد، ج٢، ص٥٤ – ٥٥، والبلاذري، فتوح البلدان ص٧٢ – ٧٣.

(٥) الأنداد: الأمثال والشركاء.

(٦) الضاحية: الأرض البارزة.

(٧) الضحل: الماء القليل.

(٨) المعامى: البلاد المجهولة.

(٩) أغفال الأرض: التى لا آثار بها.

(١٠) الضامنة: ما حل من النخل.

(١١) الحين: الماء الجاري.

(١٢) لا تعدل: لا تصرف من مرعى تريده.

(١٣) الثابت: النخل القديم الذى ضرب عروقه الأرض وثبت مراجع أن سعد ج٢، ص٥٤ – ٥٥ مواشى، المقريزى، إمتاع الأسماع ج١، ص٤٦٦ – ٤٦٧، حاشية البلاذرى، فتوح البلدان، ص٧٣.

(١٤) السارحة: الماشية التى تسرح فى المرعى.

انصرف الرسول من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة[1] وعاد إلى المدينة دون أن يتابع السير إلى حدود الشام ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعا، بل اكتفى بتوطيد ولاء شمال الحجاز، وقد تم له ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستعمرات النصرانية واليهودية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز، واتفق معها على أن يؤدوا إليه جزية معينة، وبذلك تيسر له إخضاع أهالى تلك المنطقة للنفوذ الإسلامى.

**غزوة الفتح:**

وهى فتح مكة، وكانت فى رمضان للسنة الثامنة من الهجرة، وسببها أن صلح الحديبية أباح لكل قبيلة عربية أن تدخل فى عقد رسول الله إن شاءت، أو تدخل فى عقد قريش، فارتضت بنو بكر أن تدخل فى عقد قريش، وارتضت خزاعة أن تدخل فى عقد رسول الله ﷺ. وفى تلك السنة (الثامنة) اعتدت بنو بكر على خزاعة، فقتلت منها نحو عشرين رجلا، وأمدت قريش بنى بكر بالمال والسلاح، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ غضب غضبا شديدا، وتجهز لقتال قريش إلا أنه لم يرد أن يخبر الناس عن وجهته لئلا تستعد قريش فتستباح حرمة البلد الحرام، وتمتلئ أرجاؤه بأشلاء القتلى، ولكن حاطب بن أبى بلتعة البدرى أرسل كتابا سريا إلى مكة يخبرهم فيه بتوجيه الرسول إليه فأطلع الله رسوله على أمر الكتاب، فأرسل إلى المرأة التى تحمله بعض أصحابه ليفتشوها، فعثروا على الكتاب، فدعا الرسول ﷺ حاطبا، فقال له: ماحملك على هذا !؟ فقال: يا رسول الله، أما والله، إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم، فقال عمر: يا رسول الله دعنى أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال له رسول الله ﷺ: "إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم".

ثم سار الرسول ﷺ من المدينة لعشر مضين من رمضان، وفى الطريق أفطر، وأفطر الناس معه لما لقوا من الجهد والمشقة فى سفرهم، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم فى الطريق عدد من قبائل العرب وفى "مر الظهران" عثر حرس رسول الله ﷺ على أبى سفيان واثنين معه، فأسروهم وجاؤوا بهم إلى النبى ﷺ، فأسلم أبو سفيان، وقال العباس – الذى لقيه الرسول فى الطريق مسلما مهاجرا إلى المدينة

(١) المقريزى، إمتاع الأسماع، ج١، ص٤٧٣.

-: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا يفتخر به، فقال: "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن"، ثم وصل الجيش مكة، فأعلن منادى الرسول: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، واستثنى من ذلك خمسة عشر رجلا عظمت جريريتهم فى حق الإسلام ورسوله، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وهو راكب راحلته، منحن على الرحل، حتى لتكاد جبهته تسم قتب الراحلة شكرا لله على هذا الفتح الأكبر، ثم طاف الرسول بالبيت وأزال ما حولها من أصنام بلغت ثلاثمائة وستين، ثم دخل الكعبة وصلى ركعتين فيها، ثم وقف على بابها وقريش تنظر ما هو فاعل بها، فقال فيما قاله ساعتئذ: يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله ﷺ: "اليوم أقول لكم ما قال أخى يوسف من قبل ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يوسف: الآية: ٩٢] "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

ثم اجتمع الناس حول الصفا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس إليهم الرسول على الصفا، وأخذ بيعتهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، بايع الرجال أولا، ثم النساء، ولم يصافح واحدة منهن، وكان فيمن بايعهن هند زوجة أبى سفيان التى أهدر الرسول دمها فيمن أهدر يوم الفتح، فلما علمها عفا عنها ببيعتها.

**غزوة حنين:**

وكانت فى العاشر من شوال للسنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة بأيام، وسببها أن الله لما فتح مكة لرسوله ظن زعماء هوازن وثقيف أن رسول الله سيتوجه إليهم بعد الانتهاء من أمر مكة، فعزموا على أن يبدؤوه بالقتال، فأمروا عليهم مالك بن عوف وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى المعركة أموالهم ونساءهم وأبناءهم ومواشيهم ليكون ذلك أدعى إلى ثباتهم فى القتال، وقد بلغت عدة المقاتلين منهم فى هذه المعركة المرتقبة ما بين عشرين ألفا إلى ثلاثين، فأعلن رسول الله ﷺ عزمه على الخروج لقتالهم، فخرج كل من كان بمكة، أصحابه الذين قدموا معه فى المعركة، ومن انضم إليهم حتى إذا كان فى وادى حنين خرجت عليهم هوازن وحلفاؤها فى غبش الصبح، فحمل عليهم المسلمون فانكمشوا وانهزموا، فانشغل المسلمون بجمع الغنائم فاستقبلهم المشركون بالسهام فانفرط عقدهم، وفر أهل مكة والمسلمون الجدد، وبقى رسول الله ﷺ ثابتا على بغلته ويقول:

"أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب" وكان قد أشيع بين المسلمين أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل، فألقى كثير منهم سلاحه يائسا، ولكن نفرا من المهاجرين والأنصار ثبتوا حوله، وأخذ العباس، وكان جهورى الصوت – ينادى فى المسلمين: إن رسول الله لا يزال حيا، فعاد إليه من كان مدبرا، وتكاثر المؤمنون حتى استطاعوا أن ينتصروا كرة أخرى، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وبلغت غنائم العدو مبلغا كبيرا، فرقه أولا على المؤلفة قلوبهم من حديثى الإسلام، ولم يعط منها الأنصار شيئا اعتمادا على إيمانهم وصدق إسلامهم.

وقد نزل من القرآن فى هذه المعركة: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة التوبة: الآيتان: ٢٥–٢٦]

**غزوة تبوك:**

وتسمى غزوة العسرة، وكانت فى رجب سنة تسع من الهجرة، وتبوك "موضع بين وادى القرى من أرض الحجاز وبين الشام، وسببها أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ضمت قبائل لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وهى من نصارى العرب، وكان قصد هرقل من ذلك، الهجوم على المدينة والقضاء على الدولة الناشئة فى جزيرة العرب التى أخذت أخبارها وأخبار انتصاراتها تثير جزع هرقل وخوفه، فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج، وكان الوقت وقت عسر شديد وحر شديد، فانتدب المؤمنون الصادقون عن طيب نفس وتخلف ثلاثة منهم وهم من صادقى الإيمان، وندب الرسول ﷺ الأغنياء لتجهيز جيش العسرة، فجاءوا بأموال كثيرة، وجاء أبو بكر بماله كله وكان أربعين ألف درهم، وجاء عمر بنصف ماله، وتصدق عثمان يومئذ بمال كثيرة، وجهز ثلث الجيش حتى دعا له الرسول ﷺ وسلم وقال: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم". وجاءه عدد من فقراء الصحابة لا يجدون ما يركبون عليه فقال لهم الرسول ﷺ: "لا أجد ما أحملكم عليه"، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، وتخلف المنافقون بضعة وثمانون رجلا، واعتذر إليه عدد من الأعراب بأعذار غير صحيحة، فقبلها منهم ﷺ.

سار رسول الله ﷺ بالناس ومعه ثلاثون ألف مقاتل، ومن الخيل عشرة آلاف، وكان

هذا أعظم ما رأته العرب حتى ذلك، ثم واصل سيره حتى بلغ تبوك فأقام فيها نحوا من عشرين ليلة، ولم يلق فيها كيدا، ولم يدخل حربا.

وكانت هذه آخر غزواته ﷺ، وفي هذه الغزوة نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة التوبة: الآيتان: ١١٧-١١٨]

كما أنزلت آيات كثيرة تتحدث عن موقف المنافقين والمعتذرين من الأعراب فى هذه الغزوة، وفيها عتاب من الله لرسوله على قبول معذرتهم وهى آيات كثيرة تجدها فى سورة التوبة.

رأى الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يوجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على الحدود الشمالية ويدعى يحنة بن رؤبة – صاحب أيلة – يطلب إليه فيها إما أن يعلن إسلامه أو يؤدى إليه الجزية، فأقبل عليه هذا الأمير – بعد وصوله إلى تبوك – ومعه أهل جرباء وأذرح وبعض أهل الشام واليمن فصالحهم وفرض عليهم جزية معينة، وكان بأيلة ثلاثمائة رجل، فقرر عليهم ثلاثمائة دينار، وكتب ليحنة بن رؤبة هذا الكتاب "بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب بمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه منبر أو بحر.

وكتب لأهل جرباء: "كتاب من محمد النبى رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم".

وكتب لأهل أذرح: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله ومحمد وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفير عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، من لجأ إليهم من المسلمين من المخالفة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون حتى يحدث إليهم محم قبل خروجه".

وكتب لأهل مقنا – وكانوا يهودا: "أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزوهم وربع ثمارهم".

كذلك رأى الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل على رأس حملة خشية خروج ملكها أكيدر بن عبد الملك ومعاونته جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته وتحقيقا لسياسته التى ترمى إلى تأمين شمال الحجاز، وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بأن يأتى به إليه ونهاه عن قتله فسار إليه خالد وقبض عليه، وأظهر استعداده ليجيره من القتل حتى يأتى به الرسول على أن يفتح له دومة الجندل، فقبل أكيدر وفتحت أبواب دومة للمسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد وأكيدر على أن ينزل هذا الأخير للمسلمين عن ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، ثم قدم خالد بأكيدر على الرسول بالمدينة فصالحه الرسول على أداء الجزية وأخلى سبيله، وكتب له ولأهل دومة كتابا وفيما يلى نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر، حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها: أن له الضاحية من الضحل والبور والمعامى وإغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور بعد الخمس، لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم الثبات، ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك العهد والميثاق ولكن بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين.

انصرف الرسول من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة، وعاد إلى المدينة دون أن يتابع السير إلى حدود الشام ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعا، بل اكتفى بتوطيد ولاء شمال الحجاز، وقد تم له ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستعمرات النصرانية واليهودية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز، واتفق معها على أن يؤدوا إليها جزية معينة، وبذلك تيسر له إخضاع أهالى تلك المنطقة للنفوذ الإسلامى.

### حركة الردة

ردة العرب ظهرت فى أواخر أيام الرسول ﷺ حيث ظهرت حركات عصيان ثلاث أولاها فى نجد حيث قام طليحة بن خويلد الأسدى وادعى النبوة [1] وثانيتها فى اليمامة حيث ادعى مسيلمة النبوة وأن محمدا شريكه معه فى الرسالة حينما وفد مع قومه (بنى حنيفة)، وكتب كتابا فى الرسول يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله،

(١) نبى دعوى نبوته على حادثة مؤداها أنه تنبأ بموقع الماء فى يوم كمان قومه فيه يسيرون ويكان الظمأ يقتلهم.

السلام عليك، أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا لا يعدلون.

فكتب إليه الرسول يقول: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وثالثها فى اليمن حيث قام الأسود العنسى[1] واسمه عيهلة بن كعب بن عوف ولقب نفسه بالنبى المقنع وأخرج عمال النبى من اليمن.

**موقف النبى من هذه الحركات:**

بعث الرسول ضرار بن الأزور عاملا على بنى أسد وأمره القيام على من ارتد فضعف أمر طليحة وانفض الناس من حوله.

ولما رأى ابن الأزور ذلك أراد أن يقضى عليه فضربه بالسيف ليقتله فأخطأه وشاع بين الناس أن السيف لا يؤثر فيه، ومات الرسول وحركة طليحة فى ازدياد، وأمرهم بترك السجود فى الصلاة قائلا: ما يصنع الله بتعفير وجوهكم إن الرغوة فوق الصريح؟

وأرسل إلى مسيلمة الرجال بن عنفوة ليقوم على بنى حنيفة وليشغب على مسيلمة ولكن ما كاد الرجال يصل إلى مسيلمة حتى كان أشد على الإسلام من مسيلمة فقد صدقه فى دعواه من الإشراك فى الرسالة، ومات الرسول ومسيلمة يعظم أمره أيضا.

وأما الأسود العنسى فقد قتل ليلة وفاة الرسول[2]، وذلك أن البلاد التى ظهر بها كانت قبل الإسلام ولاية فارسية وكان الوالى عليها فى عهد الرسول رجلا يسمى "باذان" أو "بدهان" دعاه الرسول إلى الإسلام فأسلم وأقره على ولايته ولما توفى باذان فى حياة الرسول ولى ابنه "شهرا" على صنعاء فقط وعين ولاة آخرين على مخاليف اليمن، وجعل "معاذ بن جبل" معلما متنقلا بين الولايات وفى هذا الوقت قام الأسود بحركته فقتل شهرا وتزوج بامرأته (آزاد) وعظم أمر الأسود واستجاب له أهل نجران الذين بهرهم انتصاره وفتنوا بسحر حديثه فأخرجوا عمال النبى من بلاد اليمن، فكتب النبى كتابا إلى من ثبت على إسلامه من أهل اليمن يأمرهم فيه بالعمل على قتله بأية وسيلة كانت.

أخذ مسلمو اليمن فى تنفيذ أمر الرسول وسنحت لهم الفرصة بتغيره على قائد جنده

(١) عنس: بطن من مذحج، إحدى قبائل قحطان.

(٢) ويروى بعض المؤرخين إنه لم يقتل إلا فى عهد أبى بكر وكانت أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة.

قيس بن عبد يغوث فتحدثوا إليه بغرضهم فوافقوا وعمل العرب وبعض مولدة الفرس على الاتصال بزوجه الفارسية.

واستنهضوا حنينها وذكروها بما كان من الأسود من قتل زوجها والزواج بها، فدبرت لهم أمر قتله وسهلت لهم الطريق فقتل.

لم تكن هذه الحركات الثلاث سوى مقدمة لما تمخضت عنه الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول، فإنه لم يكد ينتشر خبر وفاته حتى شملت حركة الردة الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها وعمت حركة التمرد على الإسلام أو تعاليمه، ولم يثبت على إسلامه سوى مكة والمدينة والطائف، وبعض القبائل كمزنية وغفار وخزاعة.

ويجب أن يكون واضحا أنه ليس المقصود من الردة الخروج من الإسلام إلى الشرك فقط بل ما يشمل ذلك وغيره كرفض أداء الزكاة التى هى ركن من أركان الدين فالردة هى الانتقاض على الإسلام أو تعاليمه، ولكن أسباب هذه الحركة الجارفة التى كادت تعود بالجزيرة العربية إلى جاهليتها الأولى يمكن أن نتبينها من دراستنا لهذه الحركة على ضوء تقسيمات الجماعات العربية ومقدار قربها أو بعدها من الإسلام وأثره فيها، وتتلخص فيما يلى[1]:

**أسباب الردة:**

١ – خوف قبائل العرب من استئثار قريش بسلطة تغاير سلطة الرسول الذى كان يسير فيهم سير عدالة وإرشاد وشفقة ورحمة.

فقد هم أهل مكة بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل الرسول على أم القرى فتوارى منهم، ولولا أن قيض الله لهم سهيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبى: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه، وقال: والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا أنهم رأوا أن الأمر بالمدينة آل إلى أبى بكر إلى أبناء مكة من قريش لكانت الحال غير الحال، وهمت ثقيف بالطائف أن ترتد فقيض الله لها عثمان بن العاص فقال: يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من غير وبدل، وذكرت ثقيف موقف النبى منها بعد حنين، وذكرت ما بينها وبين مكة من أواصر النسب والقربى فاستمسكت بالإسلام.

٢ – كان من آثار العصبية القبلية أن سئم العرب سيادة قريش التى استمرت زمنا طويلا

(١) دكتور محمود زيادة: تاريخ العالم الإسلامى ج٢ ص ٢٠.

فى الجاهلية بما لها من العصبية والمركز الدينى الذى بلغ ذروته بإرسال محمد من بينها، واعتقدوا أنها سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها.

ويبدوا هذا واضحا فى سلوك تلك القبائل التى أسلمت خشية حراب المسلمين كأسد وغطفان وطيئ وبنى حنيفة، فهذه القبائل ما كادت ترى الفرصة سانحة حتى التفت حول زعمائها بغية التحلل من سيادة قريش، وها نحن نرى أسدا وقد التفت حول طليحة ونرى عيينة بن حصن الفزارى يقول مخاطبا قومه، إنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا وبين أسد فى القديم ومتابع طليحة، والله لأن نتبع نبيا من الحليفين – يعنى أسدا وغطفان – أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش، وقد مات محمد وطليحة حى[1].

٣ – النزاع بين النفسية الإسلامية ونزعتها والنفسية الجاهلية ونزعتها: إن بعض من أسلم – وخاصة سكان البادية – كان ينزع فى حياته النزعة الجاهلية من مهاجاة وحمية وشراب، وقد حرم الإسلام عليه ذلك، فلما توفى الرسول الموحى إليه اعتقد أن الفرصة سانحة للتخلص من هذه القيود والتكاليف الشاقة فى نظره.

٤ – نظر كثير من العرب إلى الزكاة على أنها إتاوة فرضت عليهم لإذلالهم ونظروا إليها نظرهم إلى القبيلة تسيطر على أخرى وتضرب عليها قدرا معينا من حاصلاتها.

ويبدو هذا واضحا فى حكاية عمرو بن العاص وكان رسول الله قد أرسله عقب حجة الوداع إلى عمان فلما انصرف منها مر على بلاد بنى عامر فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بنى عامر فذبح له وأكرم مثواه، فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال: يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم: فقال له عمرو: أكفرت ياقرة ؟ أتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حفش أمك[2].

وهؤلاء انتهزوا فرصة موت الرسول وعبروا عن شعورهم الجاهلى برفض دفعها لأبى بكر وهناك فريق آمن بالزكاة ولكنه لم يؤمن بمن يؤديها إليه، واحتج بآيات من القرآن حرفا إلى المعنى الذى أراده منها مثل قول الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [سورة التوبة: آية ١٠٣] فقال: لسنا ندفع زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا،

(١) دكتور محمود محمد زيادة: تاريخ العالم الإسلامى ج٢ ص ٣٢.

(٢) راجع ابن الأثير ج٢ ص ٢٣٨ (الحفش هو الحرملك الخاص بالنساء).

وأبى أن يدفعها مع علمها أنها ركن من أركان الدين، فهو لم ينكر الفريضة ولكنه أنكر الجباة، وكلا الفريقين قد عجز عن أن ينظر إلى الزكاة كجزء من المال يؤخذ للصرف فى الصالح العام.

٥- لم تكن العوامل الأجنبية أقل أثرا فى هذا الانتقاض من العوامل السابقة.

وبيان ذلك أن شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام والعراق وجنوب شبه الجزيرة القريب من الحبشة والمتصل بالفرس كانا متأثرين بسلطان الفرس والروم وكان لهما مناطق نفوذ فيهما وإمارات تابعة لحكمهما، فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ مناوأة الدين الجديد بشتى الأساليب بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتى وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ولليهودية تارة ثانية وللوثنية تارة ثالثة.

وقد بدت هذه المناوأة واضحة حينما أرسل النبى الكتب إلى عاهل الفرس وامبراطور الروم وغيرهما من الملوك والأمراء[1].

وملخص القول إن ردة العرب ترجع إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية بدت آثارها وبرزت فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول، فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر فى الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغداة حنين وحصار الطائف.

وكان السواد الأعظم ممن أسلم بعد الفتح من الأعراب الذين مردوا على النفاق ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفى لأن يؤثر الدين فى قلوبهم فكانت معرفتهم بالإسلام معرفة سطحية "وقد نعى الله سبحانه وتعالى فى غير آية على هؤلاء، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [سورة التوبة: آية ٧٩] أما الإسلام الحق والعقلية الإسلامية فقد كانت أظهر فى المدن لاسيما فيمن أسلموا قبل الفتح.

**بعث أسامة:**

ولما أدى الرسول حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة، وعاد مع أصحابه إلى المدينة أصبح لا يخشى شيئا من ناحية جزيرة العرب لسيادة الدين الإسلامى على أقاليمها ومدنها، ولكنه يرى أن أرض الإسلام لا تزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث إن الروم يرابطون على حدود الشام الجنوبية، لذلك وجه اهتمامه إلى تأمين حدود بلاد

(١) الصديق أبو بكر ص ٨٤ ، ٩٨.

العرب الشمالية، فأمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية، أسند إمارته إلى أسامة ابن زيد بن حارثه[١]، وأوصاه بقوله[٢]:

"اغز باسم الله فى سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا تمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفناهم، واكفف بأسهم عنا، فإن لقوكم قد أجابوا وصيحوا، فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وقولوا اللهم إنا عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تغلبهم أنت، واعلموا أن الجنة تحت البارقة [٣].

لقيت الدعوة التى وجهها الرسول إلى المسلمين للاشتراك فى حملة أسامة قبولا من كثير من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار، غير أن بعض المهاجرين ساءه تولية أسامة إمارة الحملة لحداثة سنه[٤]، فقد كان وقتذاك لا يتجاوز العشرين من عمره، فلما بلغ ذلك الرسول وكان قد بدأ يشتكى المرض الذى ألم به، غضب غضبا شديدا، وألقى على المسلمين خطبة فى المسجد، قال فيها[٥]: "أما بعد، أيها الناس، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله، وأيم الله، وإن كان للإمارة لخليقا، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة وإن كان من أحب الناس إلى، وإنهم لمخيلان لكل خير، فاستوصوا به خيرا فإنه من خياركم".

حرص الرسول ﷺ رغم المرض الذى اعتراه على المضى فى إعداد حملة أسامة بن زيد، فقال للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبل خروجهم مع أسامة: "انفذوا بعث أسامة" فأخذ المسلمون يتهيئون للغزو وركب أسامة إلى معسكره – خارج المدينة – ، وطلب من أصحابه اللحاق به، غير أنه لم يكد يشرع فى السير بحملته حتى أتاه خبر اشتداد المرض على الرسول فأقبل إلى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح، وبعد فترة قصيرة من وصوله إليها، انتقل الرسول إلى جوار ربه وذلك فى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ[٦].

(١) الطبرى، ج٢، ص٤٢٩.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ص٥٣٦ – ٥٣٧.

(٣) البارقة، السيوف، حاشية رقم ١، المقريزى، إمتاع الأسماع، ج١، ٥٣٧.

(٤) اليعقوبى، ج١، ص٩٣.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤، ص٣، المقريزى، إمتاع الأسماع، ج١، ص٣٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤، ص٤، المقريزى، إمتاع الأسماع، ج٤، ص٥٣٧ – ٥٣٩.

**حجة الوداع:**

كانت حجة الوداع هى الحجة الوحيدة التى أداها رسول الله ﷺ بعد البعثة، ولما تسامع الناس أن رسول الله ﷺ سيحج فى تلك السنة توافدوا إلى الحج من مختلف أنحاء الجزيرة العربية حتى بلغوا – كما قال بعض المؤرخين – مائة وأربعة عشر ألفا، ونحسب أن هذا العدد تقديري، وإلا كيف أمكن إحصاؤهم وتحديد عددهم بهذا القدر؟

وقد خطب رسول الله ﷺ خطبته الشهيرة التى يجب أن يحفظها كل طالب علم، لما تضمنته من إعلان للمبادئ العامة للإسلام، وهى آخر خطبة له ﷺ **وقد جاء فيها:**

"أيها الناس، اسمعوا قولى، لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس إن دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع وإن أول دماؤكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتله هذيل – فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد... أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروا على دينكم.

أيها الناس.. إن النسىء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد.... أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحد تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكن عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا،

كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولى وأعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت".

إن أول ما يلفت النظر فى حجة الوداع هذا الجمهور الضخم الذين حضروا مع الرسول ﷺ من مختلف أنحاء الجزيرة العربية مؤمنين به، مصدقين برسالته مطيعين لأمره، وقد كانوا جميعا قبل ثلاث وعشرين سنة فحسب على الوثنية والشرك، ينكرون مبادئ رسالته، ويعجبون من دعوته إلى التوحيد، وينفرون من تنديده بآبائهم الوثنيين، وتسفيه لأحلامهم، بل كان كثير منهم قد ناصبوه العداء، وتربصوا به الشر، وبيتوا على قتله، وألبوا عليه الجموع، وجالدوه بالسيوف والرماح، فكيف تم هذا الانقلاب العجيب فى مثل هذه المدة القصيرة، وكيف استطاع ﷺ أن يحول هذه الجموع من وثنيتها وجاهليتها وترديها وتفرقها إلى توحيد الله وعلم ذاته وصفاته واجتماع الكلمة، ووحدة الهدف والغاية؟ وكيف كسب حب هذه القلوب بعد عداوتها، وهى المعروفة بشدة الشكيمة وعنف الخصام؟ ألا إن إنسانا مهما بلغت عبقريته ودهاؤه وقوة شخصيته ليستحيل أن يصل إلى هذا فى مئات السنين، وما سمعنا بهذا فى الأولين والآخرين، إن هو إلا صدق الرسالة، وتأييد السماء، ونصرة الله، ومعجزة الدين الشامل الكامل الذى أتم الله به نعمته على عباده، وختم به رسالاته للناس، وأراد أن ينهى شقاء أمة كانت تائهة فى دروب الحياة مستذلة للأهواء والعصبيات، وأن يدلها على طريق الهداية، ويفتح أعينها لأشعة الشمس، ويقلدها قيادة الأمم، ويحول بها مجرى التاريخ، ويمحى بها مهانة الإنسان، ويورثها الحكمة والكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب.

مائة وأربعة عشر ألفا كانوا له مكذبين، فأصبحوا له مصدقين، وكانوا له محاربين، فأصبحوا له مذعنين، وكانوا له مبغضين، فأصبحوا له محبين، وكانوا عليه متمردين، فأصبحوا له طائعين، كل ذلك فى ثلاث وعشرين من السنين... ذلك هو صنع الله الحق المبين، فتعالى الله عما يشركون، وتنزهت ذات رسوله عما يقول الملحدون، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وثانى ما يلفت النظر فى حجة الوداع هذا الخطاب القوى المحكم الذى خاطب به رسول الله الناس أجمعين، وتلك المبادئ التى أعلنها بعد إتمام رسالته ونجاح قيادته، مؤكدة للمبادئ التى أعلنها فى أول دعوته، يوم كان وحيدا مضطهدا، ويوم كان قليلا مستضعفا،

مبادئ ثابتة لم تتغير فى القلة والكثرة، والحرب والسلم، والهزيمة والنصر، وإعراض الدنيا وإقبالها، وقوة الأعداء وضعفهم، بينما عرفنا فى زعماء الدنيا تقلبا فى العقيدة والمبدأ، وتباينا فى الضعف والقوة، وتغيرا فى الوسائل والأهداف، يظهرون خلاف ما يبطنون، وينادون بغير ما يعتقدون، ويلبسون فى الضعف لبوس الرهبان، وفى القوة جلود الذئاب، وما ذلك إلا لأن هؤلاء رسل المصلحة، وأولئك رسل الله وشتان بين من يحرم فوق الجيف، وبين من يسبح فى بحار النور، وشتان بين الذين يعملون لأنفسهم، وبين الذين يعملون لإنسانيتهم، شتان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[سورة البقرة: الآية ٢٥٧]

**وفاة رسول الله ﷺ :**

لما أشيع عن وفاة الرسول ﷺ اضطرب الصحابة جميعا لهول الكارثة، وزلزلت المدينة زلزالها، وطاشت عقول كثيرة من الصحابة والسابقين إلى الإسلام، فمنهم من عقل لسانه، ومنهم من أقعد عن الحركة، ومنهم وهو عمر من شهر سيفه ينهى الناس أن يقولوا: إن الرسول ﷺ قد مات، ويزعم أنه غاب، وسيرجع إليهم، ولكن أبا بكر وحده هو الذى كان ثابت الجأش، فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فى فراشه، فقبله، وقال له: بأبى أنت وأمى يا رسول الله! ما أطيبك حيا وميتا! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا، يا رسول الله اذكرنا عند ربك.

ثم خرج أبوبكر إلى الناس، فخطب فيهم وقال: أيها الناس! من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ثم تلا قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ۚ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]

فلما تلاها أبوبكر أفاقوا من هول الصدمة، وكأنهم لم يسمعوها من قبل، قال أبوهريرة: قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أن أبا بكر تلاها فعقرت – أى دهشت وتحيرت – حتى وقعت إلى الأرض وما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.